عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ ﷺ،

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»(٣٤٤).

(٣٤٤) رواه البخاري (٣٤٨٤).

آيات

- ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص: ٢٥].
- ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

الراوي

هو: عُقْبَةُ بنُ عَمْرِو بنِ ثَعْلَبَةَ الأَنْصَارِيُّ، من بني الحارثِ بنِ الخَزْرَج، أبو مسعود، وهو مشهورٌ بكُنْيته، ويُعرَف بأبي مسعود البَدْريِّ، قيل: لم يَشهَد بَدْرًا؛ إنما نزل بِمَوْضِع يقال له: بَدْرٌ، فَشُهِر بذلك، وكان مِمَّن شَهِد بَيْعَة العَقَبة، وكان شَابًّا من أَقْران جابر ﷺ في السِّنِّ. روى أحاديثَ كثيرةً، وهو معدودٌ في علماء الصحابة. نزل الكُوْفَةَ، واستخلفه عَليٌّ يومَ خُرُوجه إلى صِفّينَ، وَتُوفِّي سنة إحدى أَو اثنتين وأربعين للهجرة»(١).

خلاصة

توارث النَّاسُ من كلام الأنبياء السابقين وشرائعهم قولَهم: «إذا لم تستحي فاصنع ما شئت» أي: إن الحياء يمنع صاحبَه عن كثيرٍ من المُنكرات، فمن لم يكن لديه حياءٌ لم يصرفه شيءٌ عن صُنع ما بدا له.

(١) تراجع ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ١٠٥)، «الوافي بالوفيات» للصفديِّ (٢٠/ ٦١)، «البداية والنهاية» لابن كثير (٧/ ٣٥٦).

١ يخبر النبيُّ ﷺ أنَّ النَّاسَ توارثوا جيلًا عن جيلٍ من كلام النبوةِ المتقدمةِ مِمَّا لا يتغير ولا يُنسخ قولَهم: «إذا لم تستحي فاصنع ما شئت»، وهو أمرٌ قد عُلم صوابُه، واتَّفقت العقول على حُسنه، وما كان هذا صفتَه، لم يَجُزْ عليه النَّسخ والتبديل»[٣٤٥].

٢ ومعنى تلك المقولة أنَّ الحياء هو الذي يمنع الإنسانَ عن كثيرٍ من القبائح، فمن لم يكن له حياءٌ لم يزجره شيءٌ عن الفحشاءِ والمنكر.

٣ والحياءُ خُلُقٌ حميدٌ يبعث في صاحبه الانقباضَ عن الشيءِ وتركَه حذرًا من اللوم فيه أو المَذَمَّةِ به، وهو رأسُ الفضائلِ والشِّيم والأخلاق، وهو عِمادُ شُعَب الإيمان، وبه يتمُّ الدين، وهو دليلُ الإيمان، ورائدُ الإنسان إلى الخير والهدى، وهو خُلُقٌ يَبعَث صاحبَه على اجتناب القَبيح، ويَمنَعه من التقصير في حقِّ ذي الحقِّ.

٤ وأول الحياء وأوْلاه: الحياءُ من الله تعالى، وهو ألَّا يراك حيث نهاك، وذلك لا يكون إلا عن معرفة بالله تعالى كاملة، ومُراقبة له حاصلة، وهي المعبَّر عنها بقوله: «أن تعبُدَ اللهَ كأنك تراه؛ فإن لم تكُنْ تراه فإنه يراكَ»[٣٤٦]. وهو ما أراده النبيُّ ﷺ بجعله من شُعَب الإيمان؛ حين قال ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ». قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكَ؛ وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ»[٣٤٧].

٥ ولهذا أخبر ﷺ أنَّ الحياءَ شُعْبَةٌ من الإيمان[٣٤٨]، ومَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى رَجُلٍ، وَهُوَ يُعَاتِبُ أَخَاهُ فِي الحَيَاءِ، يَقُولُ: إِنَّكَ لَتَسْتَحْيِي، حَتَّى كَأَنَّهُ يَقُولُ: قَدْ أَضَرَّ بِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَعْهُ، فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ»[٣٤٩].

٦ والحياءُ نوعان؛ أحدهما: غَريزيٌّ، وهو خُلُقٌ يمنحُه اللهُ سبحانه للعبدَ ويجبُلُه عليه، فيكُفُّه عن ارتكاب القبائح والرذائل، ويحثُّه على فعل الجميل، وهو من أعلى مواهب الله للعبد، فهذا من الإيمان باعتبار أنه يؤثِّر ما يؤثِّره الإيمان من فعل الجميل والكَفِّ عن القبيح، وربما ارتقى صاحبُه بعده إلى درجة الإيمان.

---

(٣٤٥) «معالم السنن» للخطابيِّ (٤/ ١٠٩، ١١٠).

(٣٤٦) رواه البخاريُّ (٥٠)، ومسلم (٨).

(٣٤٧) رواه الترمذيُّ (٢٤٥٨).

(٣٤٨) رواه البخاريُّ (٩)، ومسلم (٣٥).

(٣٤٩) رواه البخاري (٦١١٨).

٧ والنوع الثاني : يكون مُكتَسَبًا ، إما من مقام الإيمان ؛ كحياء العبد من مقامه بين يدَيِ الله يوم القيامة ، فيوجِب له ذلك الاستعدادَ للقائه ، أو من مقام الإحسان ؛ كحياء العبد من اطِّلاع الله عليه وقُربه منه ؛ فهذا من أعلى خصال الإيمان[٣٥٠] .

(٣٥٠) انظر : «فتح الباري» لابن رجب (١/ ١٠٢) .

١ الحياءُ خُلُقٌ جميلٌ، يهذب النفوس ويدعوها إلى التحلي بالأخلاق الحميدة، والبعد عن الفواحش والمعايب. فينبغي على كلِّ مسلمٍ أن يتعاهد حياءَه ويُنَمِّيه.

٢ الحياءُ خُلُقٌ نَبَوِيٌّ؛ فقد كان ﷺ حَيِيًّا، قال أبو سعيد الخدري ﷺ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ»(٣٥١)، وقال ﷺ في حقِّ كليم اللهِ موسى ﷺ: «إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، لاَ يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ؛ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ»(٣٥٢). أفلا يجبُ أن نتشبَّه بأنبياءِ اللهِ تعالى؟!

٣ مَن أراد دخول الجنة فليحرص على الحياء؛ فإنَّ من أعظم فضائل الحياء أنه يُفضي إلى جنةٍ عَرْضُها السماوات والأرض؛ قال النبيُّ ﷺ: «الْحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ، وَالإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ، وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ»(٣٥٣).

٤ الحياءُ زينةُ الأخلاقِ، فمَن تزيَّن به فهو المحمودُ عندَ اللهِ تعالى وعند الناس، ومَن نَزَع حياءَه كان مذمومًا عند اللهِ تعالى وعند النَّاس. قال النبيُّ ﷺ: «مَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ إِلَّا شَانَه»(٣٥٤).

٧ الحياءُ خُلُقٌ ربَّانيٌّ، يكفي الحَيِيَّ شرفًا أنَّه مُتَشَبِّهٌ بالحقِّ تبارك وتعالى في صفته؛ قال النبيُّ ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ، فَيَرُدَّهُمَا صِفْرًا - أَوْ قال: خَائِبَتَيْنِ»(٣٥٥).

٨ قال الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ رحمه الله: «خمسٌ من علاماتِ الشَّقاوة: القَسْوَةُ في القلب، وجُمودُ العَيْن، وقِلَّةُ الحياء، والرغبة في الدنيا، وطولُ الأمل»(٣٥٦).

---

(٣٥١) رواه البخاريُّ (٣٥٦٢)، ومسلم (٦٧).

(٣٥٢) رواه البخاري (٣٤٠٤).

(٣٥٣) رواه أحمد (١٠٥١٢)، والترمذيُّ (٢٠٠٩)، وابن ماجه (٤١٨٤).

(٣٥٤) رواه الترمذيُّ (١٩٧٤)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٦٠١).

(٣٥٥) رواه ابن ماجه (٣٨٦٥).

(٣٥٦) رواه البيهقيُّ في «شعب الإيمان» (١٠/ ١٨٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٨/ ٤١٦).

قال الشاعر:

إذا لم تَخْـشَ عـاقِبَةَ الليالي ... وَلَمْ تَسْـتَحْيِ فَاصْنَعْ ما تَشـاءُ

فَلا واللهِ ما في العَيْـشِ خَيْرٌ ... ولا الدُّنيـا إذا ذَهَـبَ الحَيَاءُ

يَعِيشُ الْمَرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيْرٍ ... وَيَبْقَى الْعُـودُ ما بَقِيَ اللِّحَاءُ

قال غيره:

إِذَا حُرِمَ الْمَرْءُ الحَيَـاءَ فإنّـهُ ... بِكُـلِّ قَبِيـحٍ كَانَ مَنْهُ جَدِيرُ

لَهُ قِحَـةٌ في كُلِّ شَيْءٍ، وسِـرُّهُ ... مُبَاحٌ، وَخِـدْنَاهُ خَنًا وغُـرُورُ

يَرَى الشَّتْمَ مَدْحًا وَالدَّناءَةَ رِفْعَةً ... وَللسَّمْعِ منه فـي العِظَات نُفُورُ

وَوَجْهُ الحَيَاءِ مُلْبَسٌ جِـلْدَ رِقَّةٍ ... بَغِيضٌ إليـه مـا يَشِينُ كَـثِيرُ

لَـهُ رَغْـبَةٌ في أَمـرِه وَتَجـرُّدٌ ... حَلِيمٌ لَدَى جَـهْلِ الجَهُولِ وَقُورُ

فَرَجِّ الفَتَى مـا دَامَ يَحْيَا فإنَّـه ... إلى خَيْرِ حَـالاتِ الْمُنِيبِ يَصِيرُ